

الثنائيات الضدية في شعر صفاء الحيدري

أ.م.د. وسام محمد منشد بندر الهلالي
كلية التربية / جامعة القادسية
Monaf.al.iraqi@gmail.com

قبول النشر : ٢٠١٩/٦/٢٧

تسليم البحث : ٢٠١٨/١٠/٣

الخلاصة :

طابع الثنائية طابع أدبي عملت على صياغته مجموعة من المكونات الاجتماعية والسياسية والبيئية ، إذ إن ظاهرة الثنائيات متجذرة في الإبداع الشعري وتحمل في جوهرها عنصر التضاد ، و كان الشاعر صفاء الحيدري قد استعمل اللغة الكلاسيكية ، لكنه كساها بثوب جديد ، اعتمد على عنصر الأضداد ، لتعزيز المعنى وتقوية أثره وتأثيره في نفس المتلقي ، كذلك وظف الشاعر الحيدري الإشارة دون تفصيل ، في كثير من نصوصه الشعرية ، اعتمد فيها على الانزياح بشكل لافت ، فقد اتسم شعره أيضاً بشيوع الطابع السردى في كثير من قصائده ، إلا أننا اعتمدنا في دراستنا على اقتطاع النص الذي تبرز فيه الثنائية الضدية للإشارة إليها و التوثق منها شعرياً ، فقد شكل التضاد محوراً أساسياً في معظم نصوص الحيدري ، عبر ثنائيات متشابكة تضيف إيماءات غزيرة على امتداد النص .

الكلمات المفتاحية : الثنائيات الضدية ، الإبداع الشعري ، الأضداد ،

The binaries contrasting in poetry

Safaa Al_ Haidry

University of Al-Qadisiyah\College of Education

Monaf.al.iraqi@gmail.com

Delivery date: 3/10/2018

Posting acceptance: 27/6/2019

Abstract

The binary is based as a phenomena that appear to be separate , contradiction link like symmetry and contradiction , contradiction has technical ability to create a toual atmosphere , based on negative and positive in the use of contrasting words in meaning , contradiction is part of the texture of the poem and it's composition the binaries are represent in poetry Safaa Al_ Haidary in the following phenomena : place and time virtue and vice , attendance and absence , the contrast coiors and movement and silence and so on .

Key Words: Antipodal dichotomies, capillary creativity, opposites

المقدمة:

للتناقضات الضدية في الشعر أشكالاً مختلفة تجعل منها مرآة لرؤى مختلفة ، تشكل العمل الفني ، أي أنها تكون عناصر تشكيلية تخرج عن المألوف والمكرر ، تمنح للشاعر فرصة لإنتاج النص بطرائق وأساليب مغايرة ، وإذا تحقق هذا الدور في تشكيل النص ، يمكن له أن يظهر على مستوى اللغة الشعرية ، وعلى مستوى الرؤيا ، وقد حاولنا في هذا البحث أن نرصد هذه الظاهرة في ديوان الشاعر صفاء الحيدري ، وهو شاعر عراقي لا يحفل به النقاد كثيراً ، ونادراً ما يتذكره الشعراء ، وقلمنا يذكره المؤرخون من مواليد ١٩٢١ انصرف إلى الشعر منذ عام ١٩٤٠ وعمل في الصحافة ، وله ثمانية مؤلفات شعرية منشورة ، وهي : أوكار الليل (١٩٤٧) ، وعبث (١٩٥٠) ، وبابلون (١٩٥٤) ، وقصائد وطنية (١٩٦٢) ، وقنوط (١٩٦٣) ، وقافلة الحريم (١٩٦٥) ، والحب الكبير (١٩٦٨) ، وقصائد للوطن (١٩٨٠) ، وفي عام ١٩٨١ نشر أعماله الشعرية كاملة . وقد تكون هذا الشاعر في حاضنة الشعر العربي الرومانسي شأنه شأن غالبية شعراء جيله.^(١)

وقد عبر عن موضوعات وظواهر أسلوبية مختلفة ، منها التناقضات الضدية التي عبر عنها بطريقة مخصوصة تؤدي إلى توليد دلالات جديدة وصور شعرية مختلفة ، وقد جاءت الدراسة على النحو الآتي : التناقضات في المنظور النقدي، ثم أهم الظواهر الضدية في شعر الحيدري ، وهي : ثنائية الزمان والمكان ، وثنائية الفضيلة والرذيلة ، وثنائية الحضور والغياب ، وثنائية اللون ، وثنائية الحركة والسكون .

التناقضات في المنظور النقدي :

تعد التناقضات الضدية من الظواهر الأسلوبية البارزة في النص الشعري ، فهي إحدى المهيمئات البلاغية التي لها دور مهم في صياغة النسق البنائي .

وفي النقد العربي القديم يلتقي مصطلح التناقضات الضدية في بعض جوانبه مصطلح الطباق والتضاد والمقابلة ، انطلاقاً من وظيفة الأدب المعبرة عن التجربة الصادقة أو غير الصادقة ، إذ تعد التناقضات مرتكزاً من مرتكزات التحليل البنائي النقدي للنصوص الأدبية ، يؤدي الكشف عنها للوصول إلى البنية المتكاملة في النص .^(٢)

تقوم التناقضات بوصفها فكرة فلسفية على فكرة أن ثمة قدرة على الربط بين الظواهر التي يبدو أنها منفصلة، فالتضاد رابطة مثل التماثل، والتناقض ؛ لأنه يعني نفي النقيض، فوجود النور ينفى وجود الظلام؛ لذا يدخل النور والظلام في علاقة تناقض، أما وجود الأبيض فيتضاد مع الأسود، فالعلاقة بينهما علاقة تضاد، فالحالتان المتضادتان إذا تتالتا، أو اجتمعتا معاً في نفس المدرك كان شعوره بهما أتم وأوضح، وهذا لا يصدق على الإحساسات والإدراكات والصور العقلية فحسب بل يصدق على جميع حالات الشعور كاللذة والألم والتعب والراحة . فالحالات النفسية المتضادة يوضح بعضها بعضاً، وبضدها تتميز الأشياء، وقانون التضاد أحد قوانين التداخي والتقابل .^(٣)

تولد التناقضات الضدية فضاء مائزاً للنص، إذ تجتمع جملة علاقات زمانية ومكانية، وفعلية بأزمنة مختلفة، فنلتقي هذه العلاقات على أكثر من محور، نلتقي وتتصادم وتتقاطع وتتوازي، فتغني النص، وتعدد إمكانات الدلالة فيه، فالتضاد الفعلي والاسمي يشكل عالماً من جدل الواقع والذات في صراعها مع الحياة، ووفرة التناقضات في النص الأدبي دليل انسجام إيقاعاته،

وانفتاحه على أكثر من محور، فيمكن أن نعثر على مجموعة أنساق متضادة في النص الأدبي الواحد تضيء عليه مزيداً من الحيوية والحركة، هذه الأنساق المتضادة ذات صلة بالكون الذي تصوره س واء أكان ذلك الأمر بالتضاد أم بالتكامل؛ لذا تجتمع فيها الخصائص الجمالية .

وتعمل الأضداد على متابعة النصّ، وما يتشكّل عنها من علاقات، تتحرّك في تواتر متجاذب وكأثما شبكة تتابع خيوطها، وتتبادل مواقعها، وتتشابك تطريزاتها على جسد النصّ . كما تقوم الأضداد بدور حيويّ فاعل في تأسيس الوجه الأهم في البنية الحركية في النصّ، إذ ثمة فارق بين المواقف المتضادة والمواقف المتقابلة، "فمع التضاد يمكن أن يحدث تفاعل وامتزاج .. أمّا المواقف المتضادة فمن النادر أن تكون مواقف شعرية صالحة للنمو، وذلك لما يتضح للمتأمل من أنّ جذور الموقفين المتقابلين واحدة في العمق، على حين أن "التضاد" ترفض فيه العناصر بعضها بعضاً، كما يرفض الجسد الأعضاء الغريبة عنه .^(٤)

فالأضداد لها قدرة فنية في خلق جو نغمي، قائم على السلب والإيجاب، في استخدام المفردات المتضادة في المعنى، إذ يبرز المعنى، ويستضيء وضوحاً؛ لأن التضاد ليس محسناً بديعياً فحسب، وإنما هو جزء من نسيج القصيدة وتركيبها

وكلما كان التضاد عميقاً والاختلاف كبيراً ظهرت قدرة الشاعر على التعبير عن المعنى ورسم صور له .^(٥)

تتميز لغة الشاعر صفاء الحيدري باتخاذ الثنائيات الضدية، ملمحاً أسلوبياً مهيمناً على جميع العناصر المكونة للشعرية، إذ يظهر عنصر التضاد بين الكلمات مكوناً رئيساً، إذ لا تكاد تذكر كلمة دون أن يأتي الشاعر على ذكر نقيضتها في المقطع ذاته ((وكأنه يريد أن يثبت الوحدة في تفكير يتعاطى مع دلالات موزعة على حضورنا في الكون))^(٦)

وقد تمثلت الثنائيات الضدية في شعر صفاء الحيدري بالظواهر الآتية :

المكان والزمان :

وتتشكل هذه الثنائية من اندماج وتلاحم بين عنصري الزمان والمكان، وذات الشاعر والموضوع المطروح، المكان والزمان.. نوافذ ومراحل، عندما يتغير أي معيار من كليهما تتفاوت درجة الانتماء والاندماج، فحنين الإنسان لكل منهما يجعل من وجوده وتواجده ووجده ذا طعم مختلط بإحساس إمّا أن يكبله أو يحزّره.

إن جدلية الزمان والمكان هي كينونة لا بدّ منها حيث لا يمكن أن نحقق ذواتنا في غياب إحداها أو نغيّر في واقعنا دونها . هي رافعة الوجود الذي نعمل في ه و ننتظر منه ما ينبغي أن ينتج عمّا فعلناه . هي ثنائية المسببين لتحقيق السبب المؤدي للنتيجة .

وبتوقّر الحاضن الزمكاني يصنع الحنين للحظة بكل تفاصيلها، للصورة للرائحة للكلمة وللرفقة^(٧)

يقول الشاعر :^(٨)

بيدي أشرت وكان موعدا هنا

في الحقل عبر الدرب بعد المنحنى

وأجبتني لو تذكرين

غدا ستلقاني أنا

أملاً يفيض على الدنى

عهداً شهى المجتنى

أنا . أنت نزرعه هنا

.....

لكن الربيع مضى ولم ينم الجنى

جاء الشتاء

أتى ومرَّ وعشتهُ وحدي أنا

يستذكر الشاعر في هذه الأبيات لقاءه السابق بقوله : (وكان موعدنا هنا) ، (في الحقل) ، (عبر الدرب) ، (بعد المنحنى) وهذه كلها أماكن ترتبط بعنصر الزمان المتمثل بثنائية الربيع والشتاء . الربيع الذي مضى و الشتاء الذي جاء ، لم يتحقق بهما لقاءه الذي تم في تلك الأماكن المذكورة سابقاً ، وهذا التمازج بين هذه الثنائيات وبين ذات الشاعر (أنا الشاعر) ، تدل على اتجاهين مختلفين ، الأول هو المكان الذي مثل به الجانب الإيجابي ، لما يحمل من ذكريات طيبة ، حوت لقاء الشاعر بمحبوبه ، أما الثاني الزمان ، الذي مثل الجانب السلبي ، لأنه كما أشار الشاعر لم يتحقق فيه ما كان يرجو ، كما في قوله : (لكن الربيع مضى ولم ينم الجنى) و (جاء الشتاء أتى ومرَّ وعشتهُ وحدي أنا) .

كذلك نلاحظ ثنائية (الأنا) و (الأنت) ، ف (الأنا) تمثل بقوله : (ستلقاني أنا ، وعشته وحدي أنا) ، أما (الأنت) فتتمثل في قوله : (أنت نزرعه هنا) ، وكذلك ما جاء ضمناً في قوله : (وأجبتني لو تذكرين) و (ستلقاني) . وهذه الثنائية حملت دلالة نفسية بين اللقاء والفرق ، والتي ارتبطت بعنصر الزمان كما ذكرنا آنفاً ، كما أنها أكدت على النزعة الرومانسية للنص .
يقول في موضع آخر : (٩)

وغداً حينما سيمضي كلانا في طريق ، ويلتقي شبحانا

ستكون الرياح قد أخفت الدربَ ومرّت وما تناست خطانا

في هذا النص نلاحظ ثنائية الزمان والمكان متمثلة بلفظتي (غداً) ، و (الطريق) ، وهذه الثنائية بينت رؤية الشاعر المستقبلية للقائه القادم ، الذي سيقدره القدر يوماً ما . وهذه الحركة المتواصلة بين الزمان والمكان ، جعلها الشاعر في استحضار دائم ، من خلال ثنائية أخرى هي ثنائية الماضي واللقاء (سيمضي . . . ويلتقي) ، فعنصر الماضي يتعلق بجسديهما ، أي بالجانب المادي - الحسي ، كما يقول : (سيمضي كلانا) ، أما اللقاء فيتحقق في الجانب الروحي غير الحسي ، كما في قوله: (ويلتقي شبحانا) .
ويقول أيضاً : (١٠)

في ذات يوم

من بعد عام

عدنا التقينا في الطريق

قلبي الشقيّ وقلبك الهرمُ العتيقُ

كدنا نعودُ أجل نعودُ فسمرتنا نظرتانُ

وتنازعتنا رغبتانُ

استعمل أيضاً مفردتي (يوم - عام) ، و (الطريق) ، في عملية متشابكة بين زمن مضى (من بعد عام) ، (في ذات يوم) ، و في مكان معلوم هو (الطريق) المجهول الذي لم يحدد الشاعر معالمه ، حتى أنه ذكره في عدة مناسبات ، كما في النص الذي سبق ، وهذا مما يجعلنا نطلق على هذه الثنائية ب (المشخصات الرمزية) للشاعر . فهنا نلاحظ تكثيف المعنى ، إذ إنه يوضح أن في هذا

الوقت وفي هذا المكان قد التقى قلب الشاعر وقلب المحبوب ، وقد وصف قلبه بالشقي وقلب المخاطب بالهرم العتيق ، فالقلب الشقي هو القلب العاشق ، العنيد ، الذي لا يتنازل بسهولة عن معشوقه ، بعكس القلب الهرم العتيق ، الذي هضم العشق ، فصار بالياً ، لا يعنيه الأمر من قبل ومن بعد

ثنائية الفضيلة والرذيلة :

وتتمثل هذه الثنائية في شعر صفاء الحيدري في مطولته الشعرية (بابلون) ، وبابلون أميرة بابلية اسمها بابلون ، تقع في حب أخيها من أبيها ، الذي بدوره لا يرى في هذا الحب إثماً ، وإنما يعده امتداداً لصلة الدم التي تربطه بأخته ، ويعده حقاً من حقوقه الطبيعية المشروعة ، فهو - بنظره - أحق بأخته من أي رجل آخر . وهكذا يقوم الصراع بين بابلون وأخيها من جهة ، وبين المجتمع من جهة أخرى ، فالمجتمع يمثل الفضيلة ، لأنهم أصحاب الرأي الشائع ، والأخوين يمثلان الرذيلة ، بحسب رأي المجتمع أيضاً .^(١١)

في الفصل الأول يقول :^(١٢)

وصباحكِ الفضى أسودَ من خطيتك المشينة
ستفور ديدان القبور غداً عليك كأي طينة
ويلوغُ فيك فم الثرى ويهين عفتك المصونة

.....

إني امتحتك بالخطية يا بريئة فاستنزفي ما في شبابيك من خطية

نلاحظ لسان الفضيلة مخاطباً تلك الأميرة : إن صباحك أسود ، بسبب علاقتك بأخيك ، والتي وصفها بالخطية المشينة ، والموت سيدركك ، وفي أول الوقت ستغزو الديدان قبرك ، كأبي كائن آخر ، وسيرودك التراب وينتزع منك جسدك وعفتك ، التي دنست من قبل ، إلى أن يقول : أنك لم تجتازي امتحان البراءة والحفاظ على الفضائل والقيم الأخلاقية ، فاستنزفتي شبابك في الرذائل والخطايا .

وهكذا يكتشف المجتمع هذه العلاقة الأثمة يقرر حرقهما حييين ، وما تلبث بابلون نفسها أن تشعر بالندم فتقرر الخلاص من أخيها ، وفي ليلة من الليالي تقتله بعد آخر ضجعة لها معه ، ثم تنتحر لفشلها في التوفيق بين شهواتها وإرادة المجتمع المحيط بها . وبذلك تنتصر الفضيلة على الرذيلة .^(١٣)

وهذه الثنائيات (الفضي ، أسود) ، و (يهين ، المصونة) ، و (بريئة ، خطية) أسهمت في تعزيز شعرية النص ، وتقوية المعنى الرئيسي ، الذي يؤكد فيه الشاعر على انتقال معاني الفضيلة إلى الرذيلة بالنسبة للمخاطبة ، فانقل الصباح من كونه فضي إلى صباح أسود ، ومن عفة مصونة في الحياة إلى مهانة بعد الممات ، ومن إنسانة بريئة إلى إنسانة ملوثة بالخطية ، وهكذا . يقول الشاعر :^(١٤)

بابلون

بابلون

ماذا دهاك ، ماذا دهاك

وعلى م تقبض راحتك

الخنجر المسموم

يقطر من دماه ؟ أم دماك

.....

هذي يداه

هذي شفاه

طويت عليك ، على رؤاه كفرت عن ماضيك ، إلا عن هواه

في هذا المقطع نلاحظ أنّ بابلون قامت بقتل أخيها ، بجنجها المسموم ، وبذلك تنتصر - كما يرى الشاعر- الفضيلة على الرذيلة ، غير أنه يرى أنّ الذي انتصر في هذه القصة هو الأكثرية ، وأنّ الذي هزم هو الأقلية ، وأنّ ما حصل هو أنّ إرادة المجتمع تغلبت على إرادة الأفراد ، أما مفهوم الفضيلة والرذيلة فهو نسبي في رأيه ، وهو يقصد بالنسبية هنا ، اختلاف ثقافات الشعوب والأقوام ، وتباين عقائدها ومفاهيمها حول المحلل والمحرّم^(١٥) .

ثنائية الحضور والغياب :

الحضور في النص يتمثل ببنية الكلام الحاضرة ، والغياب يتمثل بالمعنى الغائب ، أي : أن الحضور للمفردات والتراكيب في المستوى السطحي ، يحمل في انكشافه غياب المعنى الذي لا يحضر إلا بجهد تأويلي يُمارس على غياب الحضور في لغة النص الشعري^(١٦)

يقول الشاعر صفاء الحيدري :^(١٧)

ومررت بي

ما كان قبلُ بعالمي غير انتظام

وغير شيءٍ كالدوار

وحقيقة ضاعت بضوء النهار

ومضى النهارُ مضى النهار

مرت دقائقه كأحلام قصار

وغررت بي

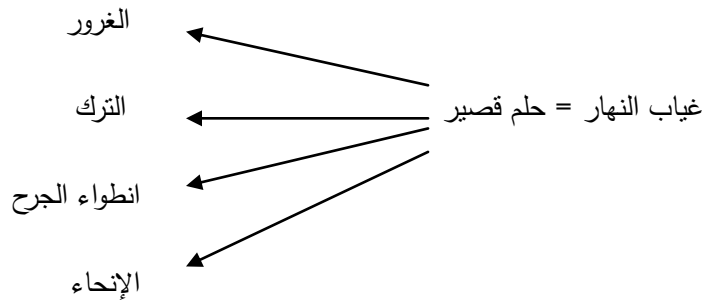
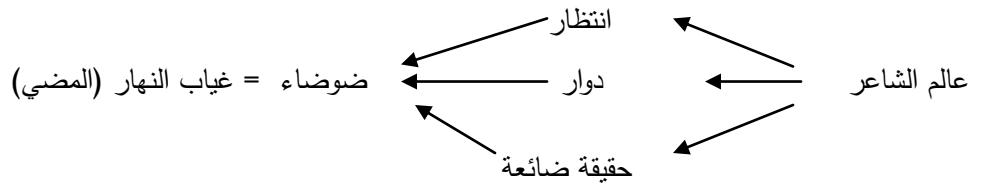
وتركتني

أطوى على الجرح الأبح وانحنى

والليل ، مد ظلاله السودا جدار

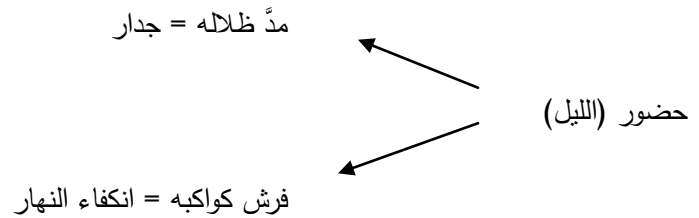
فرشت كواكبه دروب الشمس فانكفأ النهار

فنلاحظ هنا غياب النهار وحضور الليل ، وقد تجلّى ذلك الغياب لليل ، من خلال تكراره (مضى النهار) ، مفردة النهار بوصفها تحمل بين طياتها مفهوم الغياب ، وذلك من خلال إسناده لفعل الماضي ، وقد أكد على هذا الغياب ، من خلال تكراره عبارة (مضى النهار) . ويبدو أن السبب في تغييبه للنهار ، لأنه الوقت الذي قضاه بلا حب أو علاقة مع حبيب ، لذلك كان يعدّه ضياع لحقيقة وجوده في الحياة ، فعالم الشاعر عالم فارغ ، فوضوي ، إلى أن دخلت حياته تلك المرأة ، فقد ظنّ أنها حين جاءت سنأتي لحياته بالنهار من جديد ، لكنها خدعتة ، وخطفت سنوات عمره ، وتركتة في ليل سرمدى وعذاب أبدي ، ويمكن أن نوضح هذا العالم بالمخطط الآتي:



غياب النهار = ضياع دقائقه بسرعة كالحلم = التغرر = انطواء الجرح = الترك والهجر

إذن من هذا المخطط نلاحظ اللا جدوى في عالم صفاء الحيدري ، فعالمه ليس فيه سوى الانتظار ، والدوار ، والحقيقة الضائعة ، وكل ذلك تبخر في ضوضاء النهار الصاخب . فهو إحساس بفادح الخسران تجاه هذا العالم ، إلا أن هذا الخسران تجلى بخيانة تلك المرأة له بعد خدعته وغررت به وتركته ، لذلك نجده يحاول التعويض عن ذلك باستلهاً عنصر الليل ، الذي يعده الشاعر العالم المثالي له ، البعيد كلياً عن عالم النهار الصاخب ، ففي الليل الهدوء والسكون والرجوع إلى الذات. إذن يتجلى الحضور في عنصر الليل ، الذي بحضوره ينكفي النهار ، ويمكن ملاحظة ذلك في المخطط الآتي:



فالليل شكل حضوراً لافتاً في هذا النص ، فقد امتد في الأفق وغطى ظلّاه ذلك العالم ، واتخذت نجومه وكواكبه من السماء فراشاً . فتأسيس هذا الحاضر الاستثنائي في اللحظة الشعرية التي يعزها النص ، إنما هو مقاومة لسلبية الغياب المهيمن ، كذلك شكلت المرأة في وقت ما حضوراً ، فكانت نهاراً ، ثم انكفأت فأصبحت غياباً ، وصار حينها الليل حضوراً .

ثنائية اللون :

إن اللون يحمل دلالاته الخاصة لدى الشاعر ، وذلك لانصهار الألوان بالطبيعة وما يتعلق بها ، وإن انتقائية الشاعر للألوان في شعره ، يرجع إلى مزاجيته التي تفرسها طبيعة الموقف والتجربة الشعرية ، فاللون إذن دلالة بوصفه عنصراً فاعلاً في تجربة الشاعر تنصهر فيه جميع الدلالات الحقيقية والمجازية ويخرج اللون من دلالاته الوصفية الشكلية إلى دلالة على موصوف آخر وفيه يلح الشاعر ويومئ ويصرح ويلمح عفويا مرة وتصنعنا عند البعض ، وفي الحالتين تكون إيماءات اللون معيناً يستمد الشعر منه جزءاً من طاقته .^(١٨)

يقول صفاء الحيدري :^(١٩)

أنت مثلي غير أنني (يا أخي) أرمى وأجلدُ

كل ننبى أن لوني هكذا ٠٠ كالقير أسود
وعلى باب حياتي خُطَّ لي (سجّن مؤبّد)
غضبي يا أبيض اللون بصدري يتوقد
لم يزل خنجرك الدامي هنا في القلب مغمّد
تزحف المأساة منه في الشرايين وتصعد
غير أني - وأنا الأسود - قلبي ليس أسود
لك ماضيك (أخي الأبيض) لكنّ لي الغد

في هذا النص نداء وشكوى بين الإنسان وأخيه الإنسان، إذ أراد الشاعر أن يعالج قضية اجتماعية وهي قضية العنصرية، بين البيض والسود، إذ يشكل اللون إحدى المشكلات الاجتماعية في الكثر من البلدان آنذاك، ففي البلدان الغربية - مثلاً - كان الفرد ذو البشرة السمراء، يعامل بتعسف وتمييز وقمع من قبل الحكومات والأفراد الآخرين من أصحاب البشرة البيضاء، ومن هذا المنطلق نجد الشاعر قد أدار هذا المانالوج الدراماتيكي، وقد اتخذ من شخصية المظلوم ذي البشرة السوداء قناعاً له، إذ يبدأ كلامه بالمقارنة بينه والأسود وبين الآخر وهو الأبيض، فتكون النتيجة أن لا فرق بينهما، فكلاهما إنسان، بعد ذلك يشرح لأخيه الأبيض ما يتعرض له كل السود، من رمي بالرصاص، والجلد بالسوط، بسبب اللون الأسود، ولا سبب غير ذلك، و كأنه قدر محتوم على السود أن يكون هذا حالهم، وهذا ما أكده بعد ذلك بقوله: ((وعلى باب حياتي خُطَّ لي (سجّن مؤبّد)))، هذا القدر المحتوم بصاحبه ألم في القلب دامي، شبيه الشاعر بالخنجر الدامي المغروز في القلب وفي الوقت نفسه فهو مغمّد، كناية عن البقاء والثبات في ذلك المكان، وكل هذا وذلك كان له الأثر الكبير في غضب الشاعر المتوقد كالنار. وبعد ذلك يعود الشاعر للمقارنة فيؤكد أنّ قلبه المجروح بسببك يا أبيض لونه أيضاً (أبيض)، على الرغم من اختلاف البشرة بيننا، وإن كنت ترى أنك تفتخر بماضيك، فأنا لي المستقبل (الغد)، وسأفتخر به مثلك تماماً.

هكذا نقل لنا الشاعر الحيدري، صورة مؤلمة وواقعية وربما في وقته كانت مكررة تحدث يوماً بين البيض والسود، وقد وظف عنصر اللون بشكل مركزي ومؤثر، لمعالجة تلك القضية الاجتماعية.

ثنائية الحركة والسكون:

تنتج الثنائيات المتضادة العلاقات الإنسانية المتفاعلة، التي تنتجها حركة العلاقات الداخلية في النص، كما يتحوّل الفعل بقوته البنائية إلى مولّد للطاقة، التي تمد عناصر النصّ بدفعات متوالية، وتشحنها بالقوة الحركية والتوالية بدءاً من الإيقاع، وانتهاء بالتوليد الغني للعلاقات الداخلية في النصّ وهكذا يتخلّى الفعل عن دوره بوصفه مؤشراً على التحوّلات الطارئة إلى صانع لهذه التحوّلات، أي إلى طاقة توليدية لحركة التداعي والاستدعاء، والتحوّل والتفاعل، وما يرافق ذلك من انبثاقات دلالية مفاجئة^(٢٠) يقول الشاعر صفاء الحيدري في ذلك: (٢١)

وسجا الليل غير طريقة بابٍ وأغان بعيدة خرساء
تغمز الصمت كلما أحلوك الليل وأغفت به رياح الشتاء
وتمشت فيه الأمانى لتلهو بجفون المشاعر الرمضاء
غير صوتٍ ينزو فترتعش الريح وترتاع وحشة الأشياء
ويكاء يعلو في تد ضحكاً وأتينا يموت بعد بكاء
.....
ومضت ساعة ولم يظل الصمت فشقّ السكون همس رداء

وتمطى على الجدار شعاع يسكب النور في جفون المساء

تتضح ثنائية الحركة والسكون هنا بشكل واضح ، فالسكون المطبق ، والحركة الفعلية ، متمثل في المفردات ودورها في سياق الجمل، ويمكن أن نوضح ذلك بالمخطط الآتي :

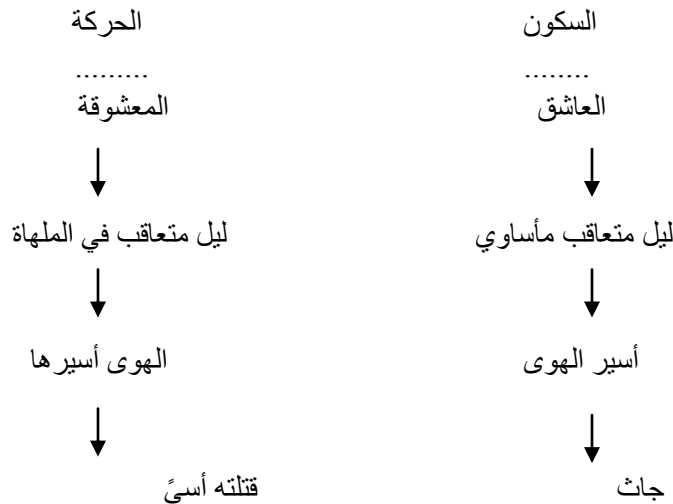
سجا الليل + أغاني خرساء + الصمت + غفوة رياح الشتاء = السكون .

فلاحظ أن هذه المفردات تحمل معنى السكون بأشكاله المختلفة من سجا الليل ، أي غطا الليل بسكونه ، وهنا تبدأ مناجاة الشاعر مع ذاته ، ويبدو أنه اعتمد على الانزياح في تشكيل هذه الثنائيات ، فقد جعل الأغاني خرساء ، والصمت يغمز ، وال رياح تغفو ، والأمني تمشي وتلهو ، وللمشاعر جفون ، وهكذا . ففي هذا النص استعمل الشاعر أسلوب التكثيف الدلالي للمعنى . أما ما يدل على الحركة فتمثل بالمفردات الآتية :

تمشت الأماني + صوت + ارتعاش الريح + ارتياح الوحشة + بكاء عال + ضحك مرتد + شعاع تمطى + نور مسكوب = الحركة فجاءت هذه المفردات مشحونة بطاقة دلالية تناقض حالة السكون فيما مضى ، إذ نلمح هنا التعارض بين المعنى المباشر للمنتوق والمعنى غير المباشر ، فالكلام لا يعبر عن ظاهره بل عن المعنى الخفي . ومن ذلك أيضاً ، قول الشاعر الحيدري : (٢٢)

ومضى الليل يعقبه الليلُ ولما يزل أسيرَ هواها
يتلوى من الأسي وهي تلهو بالليالي كما تشاء منها
وهو جاثٍ بعتبة الباب يستجدي أماسيه نفحةً من شذاها
قتلته أسيّ ، فأغفى على الذلّ تناجيه في الظلام رواها

في هذا تبرز ثنائية الحركة والسكون في مجموعة من الكلمات المتعارضة ، التي باجتماعها تشكل رؤيا شعرية تبعث على الاختلاف والمغايرة وتميزه من باقي النصوص الأخرى ، ويمكن توضيح ذلك بالمخطط الآتي:



رؤاها تناجي

إذن فالسكون تمثل كليا في شخص العاشق ، الدالة على معاناة وآلام ، فكان السكون يشكل الجانب السلبي ، الدال على غياب السعادة ، وقد تلخص السكون هنا - كما في المخطط أعلاه - ب (ليل مأساوي ، و أسير هوى ، و جاث بعثبة باب ، غاف على الذل)

غاف على الذل

أما الحركة فتمثل في شخص المعشوقة ، التي تشكل الجانب الإيجابي في النص ، الدال على حضور السعادة ، والذي كان سبباً في غيابه عند العاشق ، وقد تمثلت الحركة بالألفاظ الآتية : (ليلها ملهاة ، الهوى أسيرها ، قتلته أسي (العاشق) ، رؤاها تناجي) • ويبدو أن غلبة الجانب الغنائي هذه المرة على الجانب الواقعي الذي طالما وجدناه مكرراً في أغلب النصوص الشعرية للشاعر صفاء الحيدري ، وهذه الغنائية منبثقة من أسلوبية التكرار للألوان المختلفة الواردة هنا ، إن قيمة التضاد تكمن في نظام العلاقات ، الذي يقيمه بين العنصرين المتقابلين وعلى ه ذا فلن يكون له أي تأثير ما لم يتداع في توال لغوي ، وبعبارة أخرى : فإن عمليات التضاد تخلق بنية ، مثلها في ذلك مثل بقية التقابلات المثمرة في اللغة (٢٣) وهكذا أدى كل من الجانبين دوره في إتمام المعنى ، سواء في المفردات التي دلت على الحركة أم المفردات التي دلت على السكون ، فضلاً عن الكثافة الدلالية التي أشبعت النص ، وتعد سمة من سمات النص المفتوح الثري •

الخاتمة :

لقد توصل البحث إلى عدة نتائج وهي كالآتي :

- ١- إن الثنائيات الضدية أحدى الأساليب البلاغية ، التي يلجأ إليها الشعراء ، للتعبير عن تجاربهم الصادقة وغير الصادقة ، إذ تتشابك في بنية متحركة أو ثابتة ، تجمع بين السلب والإيجاب ، وتختلف قوة دلالتها من شاعر إلى آخر •
- ٢- بعض الثنائيات أصبحت مشخصات رمزية للشاعر ، إذ نجده يكررها في أكثر من نص ، وفي أكثر من مناسبة - كما في ثنائية الزمان والمكان - حتى وإن أدى ذلك إلى فوضى اللغوية ونوعاً من التكرار الممل •
- ٣- قرر الشاعر بعض العلاقات الاجتماعية ، السلبية منها والإيجابية ، حسب نظرة المجتمع وأعرافه المتوارثة ، كما في ثنائية الفضيلة والرذيلة ، إذ رأينا فيها كيف أن تقاليد المجتمع هي التي غلبت في نهاية المطاف •
- ٤- أحياناً نلاحظ أن الفوضى تتسرب إلى النص ، بسبب تداخل وتشابك بعض الثنائيات في المقطع الشعري الواحد ، كما في ثنائية الحضور والغياب •
- ٥- بعض الثنائيات تعتمد على انتقائية الشاعر ، وعلاقتها بمزاجيته ، كما في ثنائية اللون • فأحياناً طبيعة الموقف ن يحتم على الشاعر اختياره للألوان ، كما رأينا ذلك في اختياره للأبيض والأسود ، وربط هذه الثنائية بقضية العنصرية التي سادت كثيراً من المجتمعات •
- ٦- أحياناً بعض المفردات تكون مشحونة بالطاقة الحركية ، وبعضها يتسم بسمة السكون ، وهكذا تنشأ أسلوبية التقابل الدلالي بين الحركة والسكون ، وهذا ما تلمسناه في ثنائية الحركة والسكون ، من تفاعل وسلب وإيجاب •

الهوامش :

(١) ينظر : في الطريق إلى الحداثة ، دراسات في الشعر العراقي المعاصر ، سامي مهدي : ٣٧٣-٣٧٤

(٢) ينظر : الثنائيات في النقد البنيوي دراسة نظرية تطبيقية ، إيمان عبد الحسن علي : ٣٧١

(٣) الثنائيات الضدية في الشعر العربي القديم ، سمر الديوب : ٥

- (٤) ينظر : ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل ، عصام شرتح : ٤٦
- (٥) عيون مضيئة ، قراءة في شعر كمال الحديثي ، احمد مطلوب : ١١٢
- (٦) شعرية التصاد في ديوان رجل من غبار لعاشور فني ، محمد الأمين سعدي: ٤٥
- (٧) ينظر : مقال بعنوان : المكان والزمان نوافذ و مراحل ، مريم بن بلقاسم ، مدونات الجزيرة ، <https://blogs.aljazeera.net/blogs/2017/9/27>
- (٨) قصيدة (ربيع): ٥٥
- (٩) قصيدة (في الطريق) : ٢٧٥
- (١٠) قصيدة (من بعد عام) : ١٣٥ - ١٣٦
- (١١) قصيدة (بابلون) : ص ٣٩٧
- (١٢) قصيدة (بابلون) : ٣٩٩
- (١٣) ينظر : في الطريق إلى الحداثة : ٣٨١
- (١٤) قصيدة (بابلون) : ٤١٤ - ٤١٥
- (١٥) ينظر : في الطريق إلى الحداثة : ٣٨١
- (١٦) ينظر : الحب وإشكالية الغياب في الشعر الحديث ، بشرى البستاني : ٢٨
- (١٧) قصيدة (عالم فارغ) : ١٨٣ - ١٨٤
- (١٨) ينظر : دلالة الألوان عند شعراء البصرة ، صدام فهد الأسدي : ٨٣
- (١٩) قصيدة (أنا أسود) : ٢١٤ - ٢١٥
- (٢٠) ينظر : ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل : ٤٨
- (٢١) قصيدة (بيت اللعنة) : ٤٤٢ - ٤٤٣
- (٢٢) قصيدة (عاشق) : ٤٧٣
- (٢٣) ينظر : علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل : ٢٥٦

المصادر والمراجع :

الكتب :

- الثنائيات الضدية في الشعر العربي القديم ، سمر الديوب ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، ٢٠٠٩ م .
- الحب وإشكالية الغياب في الشعر الحديث ، بشرى البستاني ، دار التنوير ، الجزائر ، ط١ ، ٢٠١٣ م .
- ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل ، عصام شرتح ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ٢٠٠٥ م .
- علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل كتاب النادي الأدبي، جدّة، ط١ ، ١٩٨٨ .
- عيون مضيئة ، قراءة في شعر كمال الحديثي ، احمد مطلوب ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ط١ ، ١٩٩٢ م
- في الطريق إلى الحداثة ، دراسات في الشعر العراقي المعاصر ، سامي مهدي ، دار ميزوبوتاميا للطباعة والنشر والتوزيع ، بغداد - شارع المتنبي ، ط١ ، ٢٠١٣ م .

الدوريات :

- المجلات :

- الثنائيات في النقد البنيوي دراسة نظرية تطبيقية ، إيمان عبد الحسن علي ، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية الإنسانية / جامعة بابل ، عدد ٢٣ ، في تشرين الأول ٢٠١٥ .
- دلالة الألوان عند شعراء البصرة ، صدام فهد الأسدي ، مجلة الطليعة الأدبية ، العدد (٣) ، ٢٠٠١ م .

- شعرية التضاد في ديوان رجل من غبار لعاشور فني ، محمد الأمين سعدي ، مجلة الخطاب ، منشورات مخبر تحليل الخطاب ، جامعة مولود معمري ، الجزائر ، العدد ١٧ ، ٢٠١٤ م .

- المقالات :

- مقال بعنوان : المكان والزمان نوافذ و م راحل ، مريم بن بلقاسم ، مدونات الجزيرة ،
<https://blogs.aljazeera.net/blogs/2017/9/27>